أنسنة المعنويات في شعر الأغربة في العصر الجاهلي

أ.د. جودت إبراهيم*

بسام أحمد المجدل**

ملخَّص البَحث

الأنسنة هي إضفاء صفات الإنسان على غير الإنسان سواء أكان مادياً أم معنوياً، وذلك بالتوجه إلى غير الإنسان ثم عقلنته، فقد بحثت هذه الدراسة في أنسنة الأشياء المعنوية عند الشعراء الأغربة و ما دوافعهم إلى ذلك.

لقد كانت الطبيعة من الروافد المهمة التي رفدت أفكار وتجربة الشعراء الشعرية فقد كانت من أكثر الأشياء التي يعشقها الشاعر الغراب إذ لجأ إليها بعد أن تخلّى عنه المجتمع بأسره بسبب الظروف التي أحيطت به لسواد بشرته و لنسبه المغموز، فبعد أن نُفي عن المجتمع مادياً ومعنويا، اتجه الشاعر بخلجات نفسه المتعبة إلى تلك الطبيعة الغناء الرحبة بمعنوياتها ومحسوساتها، وقد اخترنا هنا البحث في المعنويات المؤنسنة التي ارتبطت بذات الشاعر، عند عنترة وخفاف؛ لأنهم الأغزر شعراً ، وقد توصل البحث إلى أنّ المعنويات المُؤنسنة عكست معانٍ عميقة ودفينة، وأيضاً عبّرت عن مشاعره الدفينة التي كانت تبري روحه قبل جسده وتأكله من الداخل كما تأكل النار الحطب.

الكلمة المفتاحية الأنسنة، الأغربة، الزمن، الموت. المعنويات

* الأستاذ الدكتور جودَت إبراهيم، أستاذ في اللغة العربية وآدابها – جامعة البعث.

** طالِب دراسات عليا في شعبة الدراسات الأدبية، في كلية الآداب، جامعة البعث.

Abstract

The inadinth is the characteristics of human in person, whether physical or moral and so on orientation to the meaning of the man and thus styled, this study has discussed in the humanity of moral objects at the urgent poets and what they are motivated. The nature of the task of the task that fell ideas and experts of poetry was one of the most affected things that the poet raven was resorted to it after giving up the community as a family because of the circumstances he had surrounded by his skin and for his skin Al-Khdouz, after denying the community physically and moral, the poet was attacked by the same tired villas to that nature to sing and their senses and we have chosen here to search for the moral moral, which has been linked to the same poet, and the search has been reached The moral moral rewards is deep and died, and they expressed his reputation that was turning his soul before his body and eat it from the inside as you eat firewood.

Key words: the crow- time-death –poetry of black arab - sentment

مقدمة:

لجأ الشاعر في العصر الجاهلي إلى وسائل فنيّة تساعد المتلقي على قراءة النص الشعري قراءةً مليئة بالدقة والمنهجية السليمة، ومن هذه الوسائل الفنيّة والإبداعية هي (الأنسنة)، ونقصد بها إضفاء الشاعر صفات إنسانية لكلّ ما يحيط به من موجودات مادية ومعنوية، فقد اسند الشعراء الصفات الانسانية إلى أشياء من غير الإنسانية، فقد منحوها صفاتٍ إنسانية، وهو الأمر الذي جعلها تتحاور وتشتكي و تتألم، فقد أصبحت ذات روح و فاعلية في النص الشعري.

إنّ الشعراء قد أسندوا هذه الخاصية إلى غير الإنسان سواء أكان مجرداً معنوياً أم محسوساً مادياً مما كان لها أثرها في إغناء القصيدة؛ الأسباب التي جعلتها من أهمّ عناصر الترميز والتي جعلت الشاعر يغوص في مجاهيل اللغة وكنهها الأخّاذ في محاولةٍ تكسير العرف المتداول وهو أنّ الإنسان هو مصدر القول والكلام والحس والألم وما إلى هنالك من أفعال وأحاسيس لا تصدر إلا من الإنسان ذلك الكائن الفريد من نوعه في عالم فضلّه الله على سائر المخلوقات.

إذن خلع الشعراء تلك الخصيصة على الأشياء المعنوية، ومنها الزمان، حيث إنّ هذه الظاهرة مرتبطة بحياة الشاعر بكل مجرياتها، ولا يمكن تصور حياة إنسانية خارج إيقاع الزمان فالحياة الإنسانية حلقةٌ لا تخرج عن الحاضر والماضي والمستقبل[1] فكما حاصر المكان الإنسان فيما سبق كذلك حاصر الزمان الشاعر الغراب فيما يأتي

1 فوغالي، د. باديس الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الجديد، الأردن، ط1،2008م، ص 101

مشكلة البحث:

من أهم مشكلات اختيار الموضوع هي كثرة الآراء في الأنسنة، وكان هناك بعض الصعوبات، منها تعدد تعريفات مصطلح الأنسنة، وأيضاً التغاضي عن المفاجأة التي يتركها الشاعر للمتلقي عندما يؤول العمل الفني، فضلاً عن المدلولات العميقة والغزيرة للشعراء الجاهليين، إذ إنّه نص متجدد يفتح أفاق المتلقي إلى كثيرٍ من التأويلات.

هدف البحث:

سعت الدراسة إلى تحديد ماهية المصطلح ثُمّ تقصّيها في نماذج شعرية من شعر الأغربة، لما لها من قيمة أدبية بين أوساط النقاد قديماً وحديثاً.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في تطبيق أنسنة المعنويات على نماذج شعرية متميزة من شعر الأغربة، ولا سيما عندما تمَّت دراستها في قصائد شعرية عالية من أشعار العرب.

منهج البحث:

اعتمدنا في هذه الدراسة المنهج التحليلي الوصفي لكي تتحقق الغاية المرجوة من البحث في تذوق النصّ الجاهلي وتقصي الأنسنة في شعر الأغربة على مستوى المواقف الإنسانية التي اعترضت الشاعر في رحلته، إذ يعدُّ نمطاً من أنماطِ التفكيرِ العلمي وطريقةً من طرقِ العملِ، يعتمدُ من أجلِ تنظيمِ العملِ العلمي والدراسة والتحليل لبلوغ الأهدافِ المطلوبةِ من البحثِ [2].

[2] إبراهيم ، د. جودت ، منهجية البحث , مديرية الكتب والمطبوعات 2007-2008م ص292.

الدراسات السابقة:

من الأبحاث التي تناولت هذا المصطلح الدكتور(مرشد أحمد) في دراسته الموسومة بـ(**أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف**) ثم بحث فيها الدكتور (حسن ناظم) في كتاب **أنسنة الشعر مدخل إلى حداثة أخرى: فوزي كريم أنموذجاً** والأنسنة في الشعر الجاهلي للدكتور حكمة أسعد شافي و أنسنة الحرب في الشعر العربي ما قبل الإسلام ل سؤدد الحميري ، و طرح هذه الفكرة محمد أركون عندما أراد من الشعر أن يلتحم بحس الرسالة الإنسانية.[3]

تمهيد:

الأنسنة هي إضافة صفات إنسانية على غير الإنسان؛ أي النزوع إلى الأشياء المغايرة للإنسان مادية كانت أم معنوية، حيث إنّ لهذا المفهوم دلالات كثيرة في النقد الحديث، إلا أنّ هناك اختلاف فيه لأنّ هناك من جنح إلى الفكر الفلسفي فيه وهناك من جنح إلى الفكر البلاغي، فهناك الكثير من النقاد الذين درسوها، كلٌّ حسب وجهة نظره فالدكتور مرشد أحمد حدد مفهومها بقوله: «صفات إنسانية محددة على الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء والظواهر الطبيعية حيث يشكّلها تشكيلاً إنسانياً ويجعلها كأيّ إنسانٍ يتحرك وتحسّ و تعبّر و تتعاطف، وتقسو حسب الموقف الذي أُنسنت من أجله»[(4)]. وعلى هذا يكون خصّها الباحث بالمعنى البلاغي له القريب من التشخيص كما هو متعارف عليه أو من الاستعارة،

[3] - أركون ، محمد، ترجمة هاشم صالح، معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية،دار الساقي ،ط1،بيروت لبنان،2001 ص8

4- أحمد، مرشد، أنسنة المكان في رواية عبد الرحمن منيف، ص7.

فالإنسان عندما يضع صفاته على الأشياء التي ليست من جنسه فإنّه يجعلها قريبة منه ومرتبطة بمكوناته الداخلية والنفسية، فكانت القصدية المتوخاة من هذه في نفس الشاعر هي ربط الذات الداخلية مع المكونات الخارجية فينتج من اتحادها حالةً فريدةً مليئة بالشجون والقلق والثبات والاضطراب في نفسه، فعندما كان يلجأ الغراب إلى إضفاء صفاتٍ على الفرس أو الظليم أو المكان فقد أراد بذلك تطهير روحه وتطهير مجتمعه من أدناسه فهو يريد ملء النقص الإنساني الذي انعدم في الواقع كي يكون عونا وسنداً له في ظل ظروف لا تسمح له بأن يتابع حياته مثل غيره، وهذا الظرف الاستثنائي شمل الغراب بصفةٍ خاصة، ومن غير المنطقي أن يقول: إنّ من أنسن الموجودات هو الغراب فقط لأنّ الكثير من الشعراء استخدم هذه التقنية في شعره إلا أنّ تخصيصنا له أنه استخدم هذا الأمر بكثرة وكأنّه استخدمه سلوة وعزاءً لنفسه فالغراب «يؤنسن تجليات العالم الخارجي ويدخلها إلى عمله الفني ويدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد لتسهم في خلق المناخ العام الذي يطمح أن يحققه وليجعلها تتجاور مع الإنسان ومشاعره وأفكاره كي تشاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة»[5]، ونحن نعرف أن القهر الذي أصاب الغراب لم يُصب أحداً من قبله وذلك جراء انقطاعه عن عالمه الإنساني الذي أراد العيش به بكلّ تفاصيله الجميلة والجليلة حيث إنّه أراد الكثير من الاقتراب والشعور بوجوده وكينونته فلم يُفلح فما كان منه إلا أن لجأ إلى هذه الطريقة الفنية كي تساعده على تفعيل التواصل مع الوسط الخارجي، فعندما حمل غير الإنسان صفات الإنسان أثار لدى المتلقي تواصلاً عاطفياً مما أدى إلى صياغة عالمٍ يعزز التواصل والتواؤم بينهم، فطبيعة الشعر هي أن يُضمّن الشاعر أهدافه الموجودة خارج الشعر

5- نفسه، ص8.

داخل مكنونات الشعر، كي تتحقق شروط الأنسنة حيث إنّ النصّ الشعري يمارس دوره في الحياة عبر هذا التضمين[6].

أنسنة الزمن:

أخذ الزمن اهتماماً كبيراً من قبل الفلاسفة والعلماء ولاسيما الشعراء لما له من علاقة وطيدة بالإنسان، إذ إنّ الإطار الزماني يشتمل على الوجود، والعدم، والموت، والحياة، والحضور، والغياب يسيطر على الحياة بكلّ مكوناتها فلا يمكن لأي إنسان الخروج من هذه الدائرة فالزمن «كأنه وجودنا نفسه، هو إثبات لهذا الوجود أولاً ثمّ قهره رويداً رويداً بالإبلاء آخرَ، إنّ الزمن هو كلّ الكائنات ومنها الكائن الإنساني، يتقصّى مراحل حياته ويتوج في تفاصيلها بحيث لا يفوته منها شيء ولا يغيب منها فتيل كما تراه موكلاً بالوجود نفسه، أي بهذا الكون يغير من وجهه ويبدل من مظهره فإذا هو الآن ليل وغدا نهاراً وإذا هو فصل الشتاء وإذا هو ذاك الصيف»[7].

إذن الزمن ذو فعالية دائما تختلف باختلاف الوقت، هو الحاضر والماضي والمستقبل وعلى هذا هو نسيج الحياة الداخلي الذي يمثل وجودنا الواقعي من حيث أنّه غير مرئي.

الزمن لُغةً:

6- ناظم، حسن أنسنة الشعر (مدخل إلى حداثة أخرى، فوزي كريم أنموذجاً، ص 11

7 مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، ع 24، المجلس الوطني للثقافة، الكويت 1998م، ص 199.

أورد ابن منظور «زمن: الزمن والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره وفي المحكم: الزمن والزمان والعصر والجمع أزمن وأزمان وأزمنة، وزمن زامن: شديد وأزمن الشيء: طال عليه الزمان والاسم من ذلك الزمن والزمنة، و أزمن المكان: أقام به زماناً وعامله مزامنة وزماناً من الزمن وقال شمر: الدهر والزمن واحد، قال أبو الهيثم: أخطأ شمرٌ والزمان زمان الرطب والفاكهة و زمان الحر والبرد قال ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر قال: الدهر لا ينقطع قال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلّها، قال سمعت غير واحد من العرب يقول أقمنا بموضع كذا وعلى ماء كذا دهراً، وإن هذا البلد لا يحملنا دهرا طولاً والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعجوز تحفّى بها في السؤال وقال كانت تأتينا أزمان خديجة: أراد حياتها»[8]، وعلى هذا يكون الزمن في اللغة مدة من الوقت وبعضهم ربطها بالدهر، فكانت النتيجة أن الزمن والدهر واحد وهو ما يدلّ على مدة زمنية، فما يكون في الاصطلاح.

الزمن اصطلاحاً:

يعدّ الزمن من أهم العناصر في بناء العمل الأدبي، فمن غير المعقول أن توجد قصيدة من دون إطار زمني يحتويها، فالشخصيات والأحداث لا يمكن أن تتحرك إلا في إطارٍ زمني، ولا يمكن للشاعر أن يبيّن سطوة الزمن أو الدهر عليه إلا من خلال تحديد عامل الزمن الذي فُرض عليه و الشاعر الغراب مأسورٌ بالوقت الذي هو فيه بحيث لا يستطيع الانفلات منه إلا بحالة التقدم في الزمن وتغيّر المفاهيم، فالذي كان عبداً بالأمس اليوم ربما يكون حراً «فحركة الزمن المصاحبة للتحول والتبدل تكمن في تغيّر الأشياء

8 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب ، دار صادر بيروت،ط3، 1993م . ج13 مادة زمن

لتنبثق أشكال جديدة على غرار انهيار الأشكال القديمة... فيكشف عن مستوى وعيها بالوجود الذاتي والمجتمعي»[9].

وثمة فرقٌ بين الزمن الذي يكتب به الشاعر قصيدته وزمن التذكير لهذه القصيدة لأن الشاعر قد يستشهد وهو في موقف لاحق، فربما يسترجع زمن العبودية بعد أن صار حراً لمجرد أنّ أحداً ذكّره بعبوديته أو أصله المغموز لأنّ الزمن الذي يسيطر على الشاعر هو ذاك الزمن القديم الذي استبسل به أو ظُلم أو أصابه لعين بهزٍ أو غمزٍ، وقد يكتب الشاعر قصيدته لزمن سابق استحوذ عليه سواء أكان لقاءً أم مغامرةً أم حرباً لأنّه في ذلك «يستخدم هيكلاً زمنياً معقداً يتم التعبير عنه بواسطة تقنيات هي: الاسترجاع والاستباق والتزامن والتراكيب»[10]، حيث إنّ الزمن يتحرك ثم يعود في دائرة مغلقة وذلك بحسب ما تقتضيه الطبيعة، فلا يمكن لفصل الشتاء أن يذهب ولا يعود مثلاً، إلا أنّ هذا الزمن الفلكي لا يمكن أن يُقاس مئة بالمئة على حياة الإنسان، فزمن الألم قد يذهب و زمن الفرح قد يذهب ولا يعود، أمّا حياة الأغربة مع الزمن فقد تكون دائرة في حلقة مغلقة فلا يلبث أن يشعر الشاعر بحريته المادية إلا وقد هجمت عليه العبودية المعنوية المتمثلة في لونه الأسود الذي لم يغسله بلاؤه الأبيض في المعارك والأخلاق الحميدة في المعاملات اليومية وكأنّ زمنه مثل فصول السنة يذهب تارة ثمّ يعود تارة يقول عنترة[11]:

ينادونني في السِّلم يا بن زَبيبَةٍ وعندَ صِدَام الخَيلِ يا بن الأطايب

9 لبنيني، زهيرة، بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان دراسة بنيوية، رسالة ماجستير، جامعة العقيد الحاج خضر، باتنة،2007–2008م، ص158

10 أحمد، مرشد، البنية والدلالة في روايات نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2005م، ص234.

11– التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، قدَّ : مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992، ص:35.

إنّ هذه الدورة الفلكية التي يسير بها زمان الشاعر تروح و تأتي، تتعاقب على الشاعر بين الفينة والأخرى ولا تنتهي فهو مسكونٌ بها لا يخرج من ربقتها مهما ابتعد ومهما صال وجال، فهو العبد الأسود ابن زبيبة في زمن السلم وهو الفارس ابن الفرسان في زمن الحرب، فما كان من الشاعر الغراب إلا أن نال الزمن عنده حظاً كبيراً و حقداً بعمق الجرح الغائر في كينونته، فحاول أنسنته بصورٍ شتّى.

وعلى هذا نال الزمن في شعر الأغربة حظاً وفيراً في أنسنته أكثر من غيره من المعنويات، فعومل بذلك على أنّه كائنٌ حيٌّ يشتمل بذلك على كل الألفاظ المتعلقة به مثل (الدهر – اليوم – الحياة) فلا نركز في حديثنا على لفظة زمن فحسب إنّما نركز على كلّ لفظةٍ ضمن هذا السياق، وعندما بحثنا في هذه الظاهرة من حيث أنسنة الزمن عند الشاعر وجدنا أنّ الشاعر ربط كلّ شيء يتعلق بالإنسان مثل الأعضاء والحب والكلام والطعام والشراب، وكأنّهم أرادوا بذلك جعل للزمان قوةً خفيّةً تسيطر عليهم و تأسرهم، وعلى هذا اتضح لنا أن امتلاك الزمن لتلك الأعضاء و ممارسته أفعالاً يقوم بها الإنسان دليل على الرهبة القوية التي امتلكها، فجاءت الأنسنة في ذلك السياق في صورٍ إبداعية وطرافة منقطعة النظير، ومن أولى هذه الصور صورة عنترة الذي طلب من المتلقي سؤال الدهر عن أفعاله في المعارك وذلك في صورةٍ حاقدةٍ على الدهر، الذي أثقل الشاعر بكثرة غزواته عليه، وهنا جعل الدهر قبيلةً لها جبروت و قوة تهجم على الشاعر دائماً، لكنّ الشاعر لم يستسلم لها بل كان يبادلها الردّ وينتصر وفي ذلك الموت شاهداً، وكأنّ هذا الدهر عدوٌ لا يهادن أبداً، فهو دائم الإثقال على الشاعر لا ينفكّ يؤذيه؛ يقول عنترة[12]:

كـمْ يُبعِـدُ الـدّهرُ مَـنْ يَرْجُـو أَقَارِبَـه عنّـــي ويبعـــثُ شـــيطاناً أحاربُـــه

12– التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:28.

فيـا لـه مِـن زمـانٍ كلّمـا انصـرفَتْ صـــروفُه فَتَكـــتْ فينـــا عواقبُـــه
دهـرٌ يـرى الغَـدرَ مِـن إحـدَى طَبائِعـه فيكـفَ يَهنَـا بـهِ حـرٌّ يُصـاحبُه
جرّبتْـــه وأنـــا غـــرٌّ فهـــذبَني مِـن بعـدِ مـا شـيَّبتْ رَأسـي تَجاربُـه
وكيـفَ أخشَـى مِـن الأيَّـامِ نائبـةً والـدَّهر أهـون مَـا عنـدي نَوائبُـه
كَـــمْ ليلـــةٍ سِـــرتُ مُنْفـــرِداً واللَّيـلُ للغـربِ قَـدْ مالـتْ كَواكبُـه

تدخل مخاطبة الدهر وأنسنته في صَميم حياة الشاعر، فقد كان ذلك الدهر إنسانا بغيضاً يعكّر صفو حياة الشاعر، فكلما أراد أن يقترب من شخصٍ معينٍ يأتي ذلك الإنسان بصفاته القذرة ليعكّر الود والصفاء في حياة الشاعر، وقد أطلق عليه مجموعة من الصفات مثل (الفتن – القتل – الغدر– المربي القاسي – المفجع) كل هذه الصفات التي وضعها الشاعر في الدهر موجودةٌ بالإنسان إلا أنّها صفاتٌ سلبية أظهرت حقد الشاعر عليه بما فيه من سلبيات وإيجابيات، وعلى هذا خلع الشاعر على قوة الزمن وسطوته صفاتٍ إنسانية (إيجابية وسلبية) على حسب ما يصفو له وعلى حسب ما يعكر حياته، فالدهر واحدٌ إلا أننا نجد له وجوهاً عدة ؛ فتارةً يفرّق وتارةً يقتل و تارةً يغدر وتارةً يشيّب وتارةً يعلّم يقول عنترة[13]:

يـا عبـلَ! كَـم مـن جَحفَـلٍ فَرَّقتـهُ والجَـوُّ أسـودُ والجبـالُ تميـدُ
فسـطا علـيَّ الـدَّهر سَـطوة غَـادرٍ والـدَّهر يبخـل تَـارةً ويَجُـودُ

ومعَ ذلك كان سخط الشاعر وعدم رضاه واضحاً وظاهراً بشدة وكأنّه هو الذي سيقبض روحه يوماً من الأيام. و لا تنقطع معاناة الشاعر أمام هذا الإنسان الذي يحاسبه على كلّ أفعاله؛ ومن ذا الذي يقف حجر عثرة في وجه عنترة الفوارس؟ نعم إنّه الدهر

13– التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:56.

الذي فاق كلّ قوةٍ، فليس غريباً موقف الشاعر الرافض لتلك القوة المتسلطة التي فرّقت بينه وبين حبيبته يقول[14]:

حَســـنَاتي عنـــدَ الزَّمـــان ذُنـــوبُ وفِعَـــــالي مَذمـــــةٌ وَعيـــــوبُ
ونَصـــيبي مِـــن الحبيـــبِ بُعَـــادٌ وَلغيـــري الـــدنوُّ منـــهُ نَصـــيبُ
كـــلّ يـــومٍ يَبـــري السّـــقامُ مُحـــبٌّ مِـــن حَبيـــبٍ ومَـــا لســـقمي طَبيـــبُ
فكـــأنَّ الزمـــانَ يهـــوى حبيبـــاً وكـــأتِّي علـــى الزَّمـــانِ رقيـــبُ

الظَّاهر من النص أن الشاعر يعاني من هذا الزمان، فقد ملك الدهر كل الموانع والعوائق التي حالت بينه وبين حبيبته الأمر الذي جعله يسخط على الدهر معللا ذلك أنّه أخذ مكان الدهر وأصبح رقيباً عليه أمام محبوبته، حيث إنّ الزمن يتقصد الشاعر لأنّه يفرقه عن حبيبته وهنا أراد الشاعر الزمن الذي وقف عليه رقيباً في التفاتة عبّرت عن عجزه أمام تلك القوة الضاغطة على أنفاسه وبها تكون صورة الزمن مستفحلة في عالم الشاعر الخاص و متمخضة عن تجربته الحياتية ومحمّلة بمشاعر الشاعر القوية والحاقدة على الزمن.

إنّ السمات التي غلبت على الزمن هي الخداع والمكر والتصرف بأهله وعدم الصدق بالوعد، حيث إنّه وصف الدهر بالكذب والخداع وإنّه لا يستقيم لأحدٍ على حال وهي من الأوصاف والصفات اللئيمة والجائرة التي عادة تُلحق بالإنسان[15] يقول عَنترة[16]:

أعاتِـــب دَهـــراً لا يَلـــينُ لِعَاتـــبٍ وأطلـــبُ أَمنـــاً مِـــن صُـــروفِ النَّوائِـــبِ
وتُوعـــدني الأيَّـــام وَعـــداً تغرُّنِـــي وأعلـــمُ حقّـــاً أنَّـــه وعـــدٌ كَـــاذبُ

14- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:27.

15 الجبوري محمد فليح حسن، ماهر صبار فهد: أنسنة الزمان في العصر الجاهلي الشعراء الفرسان اختياراً، جامعة المثنى كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2015م، ص 45.

16- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:35.

فيـــا لَيـــتَ أنَّ الـــدَّهرَ يُـــدنِي أحبَّتِـــي إلـــيّ كَمَـــا يُـــدنِي إلـــيَّ مَصـــائِبِي

يتمثل إنساناً أمام الشاعر خصه بالعتاب كي يكون معه مؤنساً صادقاً، و كأنه يطلب من إنسان الأمن على حياته، وقد حضر هذا الشيء في الفعل المضارع (أعاتب)الذي دلّ على استمرار المعركة بينه وبين الشاعر الذي يئس من آلامه وكذبه و خداعه الدائم، فيا ليت هذا الدهر الذي حمل كلّ صفات الإنسان السيئة، ذلك الدهر الذي لا يصدق بوعدٍ أبداً رغم محاولته إظهار الود للشاعر، والوعد له بالوعود المغرية إلا أنّ الشاعر متأكد من كذبه المستمر وقد ثبت ذلك بالتركيز على الأفعال المضارعة (أعاتب – يلين – أطلب – توعدني – تغرُّ) وعلى هذا تكون الإساءة دائمة من قبل الدهر الذي أثقل كاهل الشاعر بالمصائب وقربها له فلو أنّ الدهر قرّب محبوبته مثلما يقرّب عليه المصائب لكان خيراً، ومن شدة جبروت هذا الزمن لا يهادن ولا يساوم مع من يعاتبه، وإذا ما علمنا أنّ وراء كلّ أثر شعريٍّ رغبةً في البوح توصلنا إلى السبب الذي من أجله الشاعر أنسن الدهر بتلك الصورة الوحشية، فهو أراد من خلالها الشكوى[17] من كثرة مصائب الزمن التي أثقلت كاهله وجعلته بعيداً عن محبوبته التي كلما أراد الاقتراب منها جاء الزمن وفرّق بينهما رغم وعوده المستمرة إلا أنّها بطبيعة الحال كاذبة كعادة صاحبها، وبعد هذا لابدّ من عدم إغفال أمرٍ مهمٍّ وهو أن الشعراء الجاهليين لم يكتفوا بإضفاء الصفات الإنسانية البسيطة على الدهر وحسب مثل الأكل والشرب والرؤية و ما إلى هنالك من صفات يقوم بها الإنسان بصورة اعتيادية، بل أضفوا أكثر من ذلك، فقد أضفو على الدهر صفاتٍ أخرى إلا أنّ هذه الصفات سلبية كالكذب والجزع كما قلنا سابقاً بالإضافة إلى الحسد الذي هو صفة إنسانية بامتياز يقول عنترة[18]:

17– الشمري، ثائر سمير حسن، التشخيص في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري دراسة نقدية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2018م، ص 206 – 207.

18– التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:56.

يـا عبـلَ! إن تَبكِـي عَلـيَّ فَقَـد بَكَـى صَـرْفُ الزَّمـانِ علـيَّ وَهـوَ حَسُـودُ

وَكما أن الدَّهر مطبوع على الحسد كذلكَ مجبول على البُخل يقول[19]:

طلبـت مـن الزَمَـان صَـفَاء عَـيْشٍ وحَسـبُكَ قَـدرُ مَـا يُعطِـي البَخيـلُ

وهنا نسب الشاعر البخل للزمان، فقد طلب هناء العيش والحياة الرغيدة من الزمان وكأنّه يطلب هذا من رجلٍ بخيلٍ، والنتيجة واحدة وهي عدم الحصول على الرغبة المطلوبة من الزمان أو الإنسان سواء.

لم يقف الأمر عند عنترة فحسب بل أنّ هناك شعراء كعنترة ممن يعيشون في تلك البيئة، فقد أنسنوا كلَّ الأشياء التي تدلُّ على الزمان معاتبين حاقدين عليه مثل خفاف[20] الَّذي تذكَّر حبيبته بَعد أن هَجرت مكانها[21]:

يـا مَـنْ لِقلـبٍ شـديدِ الهـمِّ محـزونِ أمسـى تـذكُّر ريـا أمّ هـارونِ
أمْسـى تَـذكُّر مِـنْ بَعـد مـا شَـطَحت والـدَّهرُ ذو غِلظـة حينـاً وذو لِـينِ
فـإنْ يَكُـن حُبُّهـا أمسـى لنـا شَـجَناً وأصـبحَ الـرأيُ منهـا لا يُـؤاتيني
فقـدْ غنينـا وشـملُ الـدّهرِ يجمعُنـا أطيـعُ ريـا وريـا لا تُعَـاطِيني
تَرْمـي الوشـاةَ فـلا تُخطـي مقـاتلَهم بصـادقٍ مِـن صَـفاءِ الـودِّ مَكنُـونِ
ولِـي ابـنُ عـمٍّ لـه خلـقٍ قـدْ اخْتَلفْنـا فَأُقليـه ويُقلينـي
أزرى بِنـا أَننـا شَـالتْ نعامتَنـا فَخـالني دُونَـه بَـلْ خِلْتَـه دُونِـي

19- المرجع نفسه، ص:117.

20 - خُفَافُ ابنُ نُدْبَة، وهي أمه، وهي: ندبة بنت أبان بن الشيطان، من بني الحارث بن كعب، وأبوه عمَير، ويكنى أبا خراشة، وهو ابن عم صخر وخنساء ومعاوية، أولاد عمرو بن الحارث بن الشريد. وخفاف هذا شاعر مشهور بالشعر، وكان أسود حالكًا، وهو أحد أغربة العرب.

21- ديوان خفاف بن ندبة، ج وت: الدكتور نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف بغداد، 1967م، د ط. ص117 - 118.

يرجع الشاعر فراق المحبوبة إلى سبب تقلبات الزمن فهي مضطربة، أحيانا يجدها متوافقة مع ما يريد وطوراً تأتي عكس ما يريد وعلى هذا كانت صفة الغلظة واللين التي أنزلها الشاعر بزمانه من المعاني المتناقضة إرضاءً لما يعتلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس بفقدان الشيء الغالي عليه، فقد كان لهذا المعنى الذهني للدهر بكلّ تناقضاته بما يحتويه من الصفات الإنسانية أمل للشاعر في نظرة تفاؤل كي يجمع شمله مع أم هارون يقول في موضع آخر[22]:

أشــدُّ علــى صُــرُوفِ الــدّهْرِ إداً وآمــرُ مِــنهُم فِيهــا بِصــبْرِ

يقسو الشاعر على بنات الدهر كي يتجاوز المحنة التي فُرضت عليه، بعد أن قست الأيام وصروف الدهر على الشاعر.

لم يتوقف الأمر عند (خفاف) بل تعداه إلى (سحيم) الذي صادت قلبه الليالي يقول[23]:

لَيــالِي تَصــطادُ القلــوبَ بِفَــاحمٍ تَــراهُ أثيثــاً نــاعمَ النبــتِ عَافيــا

وهنا تختلف الليالي عن الأيام التي فتكت بعنترة وخفاف عن الليالي التي أسرت وصادت قلب سحيم، فالليالي التي أسرت سحيماً تمتلك بذلك الشعر الفاحم الذي يشبه الليل بسواده فما كان من الشاعر هنا إلا أن جمع بين أنسنة المعنويات والمحسوسات في

22 نفسه، ص: 52.

23 ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تح: عبد العزيز الميمني، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية، 1950م، د ط، ص:17.

صورة واحدة جعلت منه أسيراً للزمان ولتلك الليلة من الزمان التي رأى فيها ذلك الشعر الكثيف يقول في موضع آخر[24]:

حَمَتْـــهُ العشـــاءَ ليلـــةٌ ذاتُ قِـــرةٍ بوعســـاءَ رمـــلٍ أو بِحزنـــانِ خَالِيـــا

وهنا فعلت اللَّيلة فعلتها في حمايته في وقتٍ باردٍ، الليلة الباردة (حمت الثور) إذ إنّه اختفى في ظلامها الدامس عن عيون الصياد وكلابه، وعلى هذا قام ذلك الوقت من الزمان وهو الليل بحماية الثور والتستر عليه وهذا طبعا عملٌ من عمل الإنسان وما هذا الثور إلا معادلاً موضوعياً للشاعر.

لم يكن الزمن عند (سحيم) أكثر وطأة عليه كما رأيناه عند الأغربة، فقد صاده مرةً حباً و تعلقاً به ومرةً حماه من الصياد وكلابه الذين تربصوا به، فما كان من الزمن إلا أن أسدل ستارته عليه فأخفاه تحت كنفه ورعايته مدة زمنية تعدُّ الأقسى في حياة الثور الذي يبحث عن المأوى، لكن هذا لا يمنع من الصفات السيئة للزمن والتي أخذها من الإنسان، فقد كان هذا وكأنّه رجلٌ حقيقي يمتلئ بالصفات السيئة مثل العنف والكذب والخداع والحسد، وكلُّ هذه الصفات مأخوذة من الإنسان إذ لا يرتكبها غيره فالخيانة على سبيل المثال لم توجد إلا في الإنسان ومثلها الحسد.

وعلى هذا ومن خلال ما رأيناه نجد أن الشعراء أنسنوا الزمان بصوره المتعددة (الدهر – اليوم – العام – الليلة) وأضفوا عليه صفاتٍ إنسانيةً سواء أكانت سلبية أم إيجابية، فقد وجدناه قاسياً عند عنترة وطيباً عند سحيم، وهذا يختلف بحسب الحال الشعورية التي تسيطر على الشاعر وبحسب الظروف المحيطة التي تجعله يرضى عنه أو لا، وبكل الأحوال سعى الشاعر إلى توصيل لذة الإبداع من خلال الانحراف عن اللفظ التداولي

24– ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، ص29.

للكلمات وقد ظهر هذا واضحاً عندهم، وقد جعلوا الدهر أحد أهمِّ أسباب الموت بسبب كثرة مصائبه و امتحاناته.

أنسنة الموت:

كان للموت أثرٌ كبيرٌ في حياة الإنسان، فهو الذي يعلن إلغاء وجوده في هذه الحياة، مما دفع الشعر للاهتمام به لتأثيره الكبير في النفوس مما جعله دائماً يحاول البقاء على قيد الحياة.

إنّ للموت الكثير من المرادفات التي وردت في الشعر، أهمها (الرَّدَى – الحمام– البلى– الحتف)[25] وعندما أنسنوا الموت استخدموا هذه الألفاظ للتعبير عن مفردة واحدة وهي الموت يقول عنترة[26]:

رَضــيتُ مُصــاحبةَ البِلــى واســتَوطَنَتْ بَعــدَ البيــوتِ قُبورَهَــا وَلحودَهَــا

عدّ الشاعر المَوت صَاحباً له بعد أن فرغت الديار من أهلها، وعلى هذا اتخذ الشاعر هنا من الموت شيئاً إيجابياً في ظاهره لكنَّهُ سَلبيٌّ في فَحوَاه، فهو العنصر الذي لا يمكن مصاحبته لسَبب العداء العريق وكره الإنسان له، حيث إنّ رغبة الشاعر هنا هي الموت بعد أن قضى هذا الأخير على ساكني البيوت وجعلها خالية من أهلها، فلا حياة للشاعر بعد أهل هذه الديار علّ الموت يصاحبه وينقله إلى الحياة الأخرى على أمل اللقاء مع من أخذه الموت، ولا نكاد نجد في شعر عنترة هذه اللهجة مع الموت فهو دائما

25– التشخيص في العصر العباسي، ص 230–231.

26– التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:51.

يتحداه ويتمنّى أن يواجهه في المعركة حتى يقتله، ولا نستطيع أن نسمي هذا جبن من الشاعر المعروف بشجاعته وإقدامه لكن يمكن تسميتها بحالة يأس مرّ بها الشاعر الذي عاش حياته معظمها في جفا وبعد الناس عنه بسبب الظرف الاستثنائي الذي عاش عليه، فالإنسان قد يموت قهراً في لحظة يأسٍ قاتلةٍ تمرُّ عليه لكنّ عنترة الفوارس يمرُّ بلحظاتٍ أقوى يثبت فيها أمام الموت ويكاد أن يقتله يقول[27]:

إذَا مَا لَقِيتُ المَوتَ عَمَّمتُ رأسَهُ بسَيفٍ على شُرْبِ الدِّمَا يَتَجْوهَرُ

لقد حَظِيَ الموتُ بكمٍّ هَائلٍ من الأعضَاء الإنسانية التي أُضيفت إليه ومنهَا الرأس؛ فهنا جَعل عنترة للموت رأساً يشجه بسيفه ويجعل دماءَه تسير مثل الجَواهر، وذلك في شُعورٍ قويٍّ من الأنفة والكِبرياء وفي دعوةٍ صارمةٍ وهي عَدم الخوف من الموت مهمَا كان قوياً يقولُ[28]:

فلا تخشَ المنيَّةَ وَالْقَيْنْهَا وَدَافِعْ مَا استَطَعْتَ لَهَا دفَاعَا

فقد عَدّ الموتَ إنساناً وَدعا إلى عدم الخَوف منهُ ومواجهته في الحَالات كلّها ومسابقته فِي قبض الأرواحِ، وهنا تحدّي سافر للموت من قبل الشاعر حيث إنّه يتمثّله برجلٍ شجاعٍ يحاول سبقه إلى قتل الأعداء، يقولُ[29]:

وَألتَقِي الطَّعنَ تحتَ النَّقْعِ مُبتِسمَاً والخَيلُ عَابِسَةٌ قَد بلَّهَا العَرَقُ
لَو سَابَقتنِي المَنايَا وَهيَ طَالِبَةٌ قَبضَ النُّفوسِ أتانِي قَبلهَا السَّبَقُ

يسبق عنترة الموت في قطع الرؤوس يقول[30]:

27- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:79.

28- المرجع نفسه، ص:90.

29- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:105.

إنَّ المنيـــة لـــو تَمثَّـــلَ شَخْصُـــهَا لِـــي فِـــي العَجَـاجِ طَعنتُهَـا فِـــي الأَوَّل

حَيثُ إنَّ الموت لَو قابل الشَّاعر أو أنّه حضر في معركة لاستقبله الشاعر بأوّل طعنـةٍ، ثم يقضـي علـى الجميـع لأنّ لـيس هنـاك إنسـاناً بقـوة الشـاعر سـوى هـذا الكـائن المُسمّى الموت الذي جعله الشاعر متسربلاً بدمه يقول[31]:

ولقـــد لقيـــتُ المـــوتَ يـــومَ لقيتـــه مُتســـربِلاً والسَّـــيفُ لـــم يتســـربلِ

يبدو أنّ الحِقد على الموت عَظيم، وربما يكون هَذا الموت العبودية التي لاحقته دائماً، فاضطرَّ الشاعر إلى أنسنتهَا وتسميتهَا باسم المَوت، لأنَّهَا كَانَت بالنِّسبَة لَهُ المَوت الأَكيد الذي برَى جسدَه وأتعَب روحه، فما كان مِن الشَّاعر إلا أن أسماه اسماً مخيفاً، ثم أنسنه كي يكون إنساناً وينال منه الشاعر الذي لا يصمد بوجهه أيُّ إنسان، في حين نجد صور الموت على أنّه إنسانٌ مخيفٌ ولا يخاف منه أحد، وهنا يظهر العجز لدى الشاعر. يقول سحيم[32]:

رَأيـــتُ المَنايَـــا لَـــمْ يَهَـــبْنَ مُحمَّـــدَاً وَلا أَحـــداً وَلـــم يَـــدَعْنَ مُخَلَّـــدَا
ألا لا أَرَى علَـــى المَنُـــونِ مُخلَّـــداً ولا باقيـــاً إلاَّ لـــه المَـــوتُ مُرصَـــدَا

فعندمَا خافَ الموتُ من (عنترة) الذي شجّ رأسه لم يخف من محمَّد، بل قَتله وَقَضى عَليه. وَفي لحظة عَجْزٍ من (خفاف) بعد أن فقد حَضيراً، وفي تبرير مِنه في عَدَم القدرة على مُواجهة المَوت وعدم الصُّمود أمامه؛ جعلها لَو تخاف من أيّ إنسَان لخافت

30- ديوان عنترة، طبعة رابعة برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة بنفقة: خليل الخوري، صاحب المكتبة الجامعة، بيروت، 1893، ص: 68.

31- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، ص:122.

32- ديوان سحيم، ص:40.

مِن حضير لكنّ هذا الموت قويٌّ جداً لا يمكن أن نستحمل الوقوف أمامه مهما بلغت قوّتنا، يقولُ خفاف وَهو يرثي حُضَير الكتائب وكان صديقه ونديمَه[33]:

لـو أنَّ المَنايَـا حِـدْنَ عَـن ذِي مَهَابَـةٍ ... لَهـبْنَ حُضَـيْرَاً يَـومَ أَغلـقَ وَاقِمَـا
أطـافَ بـهِ حتَّـى إذَا اللَّيـل جَنَّـهُ ... تبـوَّأَ منـهُ منـزلاً مُتناعِمَـا
وَأَوْدَيـنَ بالرّحَـالِ عُـروةَ قبلـه ... وأهلكْـنَ صـيَّاد الفـوارِس هَاشـمَا
وهـوّن وَجْـدِي أنَّنِـي لَـم أَكُـن لَـهُ ... كَطَيـرِ الشِّـمالِ ينتـفُ الـرِّيشَ حاتمَـا

لقد كانت سَطوة الموت متجبرة في نظر الشعراء، وقد بدا ذلك واضحاً في قصائدهم الَّتي أنسنوا فيهَا الموت وأعطوه صِفاتٍ إنسانيَّةً قادِرَةً على التخلص منهم والقضاء عليهم بطرقٍ وأساليب شتّى يقفون أمامها عاجزين لا حول لهم ولا قوة، وذلك في وضع صفات إنسانية في غير الإنسان، على الموت وَغيره من المعنويات التي أخذت أيضاً صفات الإنسان.

أنسنة معنويات أخرى:

إن أنسنة المعنويات في شعر الأغربة لم تقتصر على الزمن أو الموت فحسب بل تعداه إلى أكثر من ذلك ومن خلال استقصاء أشعارهم وجدنا العشرات من المعنويات المؤنسنة غير الموت والزمن الذين ضجوا بالحياة بعد إضفاء الصفات الإنسانية عليها، وعندما تعرفنا على الأسباب التي دعتهم إلى أنسنة الموت كان لزاماً علينا أن نتعرف على الأسباب التي جعلتهم يؤنسنون هذه الأشياء وما الدوافع إلى ذلك؟

33– ديوان خفاف بن ندبة، ص: 72 – 73.

لقد جنح الشعراء الأغربة إلى أنسنة الكثير من المعنويات وذلك بحسب الحالة التي كانوا يمرون بها فعندما نذكر الأشياء المعنوية المؤنسنة يتضح أمامنا الأمر بسهولة فهي(الخيال – المصائب المرض – الدناءة) وسوف نعرض تلك المعنويات ونبدأ بالخيال.

أنسنة الخيال:

قبل الدخول إلى في أنسنة الطيف أو الخيال يجب الوقوف على المعنى اللفظي لهذه الكلمة في المعاجم المختلفة.

فقد جاء في كتاب **تهذيب اللغة** عن مادة (ط و ف): «الطَّيْفُ فِي كَلام العَرَب الجُنون... وَقيل: الغضَبُ طيفٌ لأنَّ عَقْلَ من استفزَّهُ الغَضَبُ يَعزُبُ حَتَّى يَصيرَ فِي صُورَة الْمَجْنُون الَّذِي زَالَ عقلُه»[34].

كما ورد في **كتاب العين** «كلّ شَيْء يَغشَى البَصر مِن وَساوس الشَّيطان فهو طيف، وما في الأشعار من الطيف نحو قوله: (أرَّقني طيف أرقا) يعني أنّهُ يرى خيالها في مَنامه فذلك طيفهَا»[35].

كما ذكر **الزُّبيديّ**: «الطَّيف الغَضبُ، وبه فسَّر ابن عبَّاس قَوله تعالى: (إذَا مسَّهم طَيْفٌ مِن الشَّيطَانِ) وقول مجاهد أيضاً لأنَّ أصلَه طَيفُكم كميت وميّت والطيف بالكسر الخيال نفسه»[36].

34– أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 2001م، ج14، ص26.

35 – الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. كتاب العين، مادة طوف.

36 – الزبيدي ، مرتضى تاج العروس من جواهر القاموس، مادة طوف

ومن كلّ هذه المعاني لهذه اللفظة نجد أنّها تجمع بين الارتباط الصريح بين الطيف في الليل والخيال، وبالنوم واليقظة والجنون والغضب وقد ذكره ابن حزم الأندلسي في كتابه طوق الحمامة أنّه «لابدّ للمُحبِّ إذا حُرم الوصل من القنوع بما يجد، وإنّ في ذلك لمتعللاً للنفس وشغلا للرجاء و تجديداً للمُنى وبغض الراحة وهو مراتبٌ على قدر الإصابة والتمكن فأولها الزيارة وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحبُّ محبوبه وهذا الوجه واسعٌ والوجه الثاني أن يزور المحبوب محبوبه ولكن لا سبيل إلى النظر والحديث الظاهر ثم يقول ومن القنوع الرضا مزار الطيف وتسليم الخيال وهذا إنّما يحدث عن ذكرٍ لا يفارق وعهدٍ لا يحول وفكرٍ لا ينقضي فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف»[37]، وبما أن الشعراء الأغربة كان لهم محبوبات كان بالضرورة أن يتعرضوا لطيوفهن بعد أن عزّ اللقاء في الحقيقة للأسباب التي كانوا يعانون منها كونهم أغربة سود وعلى هذا فهو «أمرٌ مهم عند أهل الغرام يتوصل إليه بالمنام وإنما تدعو الحاجة عند طول الهجر وشدة الهجر ومقاساة نار الملل والسهر ولم أرَ فيه ألطف من كلام أستاذ الوجود وقطب مراتب أهل الشهود عمر بن الفارض بل أظنه السابق إلى هذا المنوال والفاتح في باب الاحتيال»[38] عندما قال[39]:

نَصبْتُ عَلى عَيني بتغميضِ جفنهَا يــزوره زور الطَّيــف حيلــة محتــالِ
فمــا أســعفت بــالقَوم لكــن تعسَّــفت علــيّ بــدمع دائــمِ الصَّــوبِ هطّــالِ

على هذا يكون الخيال في المنام بعد أن عزَّ اللقاء في الواقع، فالشاعر يلجأ إلى هذا الأسلوب عبثاً، فقد احتاج إلى طيف المحبوبة كي يخفف عنه ألم الشوق والوجد، فما

37- الأندلسي ابن حزم، طوق الحمامة، دار المعارف مصر ط2 1977م ص 123 133
38 الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق، دار المكشوف بيروت ط1957،1م، ص863
39 ابن الفارض، الديوان، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1990م

كان منه إلا أن أنسنَه كي يَكُون قريباً منه، يؤنسنه دائماً كما لو أنّه كان يعيش معه يقول عنترة[40]:

زَارَ الخَيـالُ خَيـالُ عَبلَـةَ فـي الكَـرَى لِمُتـــيَّمٍ نَشـــوَانَ مَحلُـــولِ العُـــرَى

يأتي طيف المحبوبة على هيئة عبلة وقد جاء الفعل الماضي لتحقيق ثبات فعل الزيارة وقد أراد بذلك تأكيد الحادثة التي طالما انتظرها في الواقع حيث إنّه خصص هذا الخيال وجعله يخصّ عبلة (الخيال خيال) وعلى هذا يكون (خيال) بدلاً من خيالات الناس كلّها ؛ جاء ليريح قلب عاشقٍ متيمٍ تعب من شدة الفراق فلم يبق له رمقاً إلا برؤية المحبوبة، فما كان منه إلا أن ابتدع إنساناً بصورة الخيال كي يخلصه بما فيه، إذ إنّه يكتفي بزيارته مرةً في الشهر، وتجدر الإشارة أنّه يريد الخيال فحسب، فقد أنسنه وجعل منه إنساناً يغنيه عن رؤية عبلة بعد أن تعذر اللقاء يقول[41]:

أيَـا عبـلُ لـو أَنَّ الخَيـالَ يَزورُنِـي عَلَـــى كـــلِّ شـــهرٍ مـــرَّةً لَكفَـــانِي
لَـئِن غِبْـتِ عَـن عَينـيَّ يابنـةَ مَالـكٍ فَشَخصُـــكِ عِنـــدي ظـــاهرٌ لَعيَـــانِي

يبدو أن يأس الشاعر استبد به، فبعد أن امتنعت الزيارة امتنعت الكفاية.

أشياء كثيرة حالت دون شعور الغراب بكينونته، أشياء كَثيرة منعته من التَّمتع بأبسط الحُقوق، فعندمَا امتنعت الإنسانية الحقيقية وُجدت الأنسنة المتخيلة التي لم تُجدِ حتى في أبسط صورها، فعندما ألمَّ طيف المحبوبة لدى سحيم (وألمَّ بالشيء إذا أتاه ولم يلازمه ويقال: ألمَّ بالذنب إذا أصاب منه ولم يُصر عليه) وَهكذا كان طيف المحبوبة يمرّ

40- التَّبريزي، الخَطيب، شرح ديوان عنترة، ص:72.

41- التَّبريزي، الخَطيب، شرح ديوان عنترة، ص:198.

مرورا عابراً كضيفٍ عجول، كغيمة صيف لا تبلل المارة، وكذلك طيف المحبوبة لا يشفي غليل الشاعر أبداً يقول سحيم[42]:

ألـــمَّ خيـــالٌ عشـــاءً فطَافَـــا ولـــمْ يَـــكُ إذْ طَـــافَ إلا اخْتِطَافَـــا
لميّـــــةَ إذْ طرقـــــتُ مَوهِنـــــاً فأضْـــحى بِهـــا دَنِفـــا مُســـتَجَافا
ومـــا دميـــةٌ مِـــنْ دُمَـــى مَيسَـــنَا نَ مُعجبـــــةٌ نظـــــراً واتِّصـــــافا
بِأحسَـــنَ مِنْهَـــا غَـــدَاة الرّحِيـــ ـــلِ قَامـــتْ تُرائيـــكَ وحَفـــا غُـــدَافَا

محاولات كثيرة لاستمرار طيف المحبوبة، وعندما لم تفلح المحاولة لم تجد شيئاً مع الشاعر إذ إنّه لا يرضى باللقاء القصير فإنّه لا يثلج صدره، حيث إنّ قلة اللقاء كان له وقع على الشاعر كوقع المصيبة.

أنسنة المصائب:

إنّ المصائب اسم جامد معنى ليس له وجودٌ ماديّ، إنّما له وقع على النفس يكاد يقتل، فله وقع أشد من ضرب السيف، وعلى هذا صوّرها الشاعر على أنّه إنسانٌ يحاول النيل منه لكن هيهات أن يجدي ذلك مع عنترة الفلحاء الذي بلغت همته قمم الجبال، فعندما حاولت المصائب النيل منه تلقاها بقوةٍ وما برح يهددها بعدم الاقتراب منه يقول[43]:

مَـــدَّت إلـــيَّ الحَادثَـــاتُ بَاعَهَـــا وحَـــاربتنِي فَـــرَأَتْ مَـــا رَاعَهَـــا
يَـا حَادثَـاتِ الـدَّهرِ قَـرّي وَاهْجَعِـي فهِمَّتِـــي قَـــدْ كَشـــفَتْ قِناعَهَـــا
مـا دُسْـتُ فِـي الأَرضِ العُـدَاةِ غُـدْوَةً إلاَّ سَـــقَى سَـــيلَ الـــدِّمَا بقَاعهَـــا

42- ديوان سحيم، ص:43-42.

43- التَّبريزي، الخَطيب، شرح ديوان عنترة، ص:91.

فهي تحاربه من كلّ الاتجاهات والشاعر يصدُّ ضرباتها أنّى اتجهت، فمهما أبدت قوة في قتال الشاعر يُظهر الشاعر أعتى ما عنده في مواجهتها يقول[44]:

حَـــارِبِيْنِي يَـــا نَائِبَـــاتِ اللَّيَـــالِي عَـــن يَمِينِـــي وَتَـــارَةً عَـــن شِـــمَالِي
وَاجِهَـــدِي فِـــي عَـــدَاوَتِي وعنـــادِي أنـــتِ وَاللهِ لَـــمْ تلمِّـــي ببَـــالِي
إنّ لِـــي هِمَّـــةً أشـــدُّ مِـــن الصَّخْـــ ـــرِ وَأقـــوَى مِـــن رَاسِـــيَاتِ الجِبَـــالِ

ولا يقلّ وقع المرض عن المصيبة فله تأثير لا يقل عن وقع المصيبة، فالمَرض عندمَا يجتاح الانسان يقضي عليه بسيفه ويرديه قتيلاً، وهذا بحَسب قوة الشَّخص الذي يقف أمامه، فالرجل غَير المرأة في مواجه المرض، وبدا ذلك عندما دَاهم المرض محبوبة الشاعر سحيم وحاول أن يواجهه عنها يقول[45]:

مَـــاذَا يُرِيـــدُ السِّـــقَامُ مِـــنْ قَمَـــرٍ كـــلُّ جَمَـــالٍ لِوجْهِـــه تَبَـــعُ
مَـــا يبتغِـــي جـــار فِـــي مَحاسِـــنهَا أمالَـــه فِـــي القبَـــاح مُتسَـــعُ
غيـــرَ مـــن لونهـــا وصَـــغَّرهَا فزيـــد فيـــهِ الجمـــال والبِـــدَعُ
لـــو كـــانَ يبغِـــي الفِـــداءَ قلـــتُ لـــهُ هـــا أنَـــا دُونَ الحَبيـــبِ يـــا وَجَـــعُ

فالشاعر أقدر على مواجهة هذا الكائن الفتّاك الذي كاد أن يفتك بالمحبوبة فهذا يحمل كلّ الأشياء الدنيئة، فالدناءة مثلها مثل المرض مثل المصائب تجلب الهمَّ على صاحبها وعلى من يعاشرها فقد صورها خفاف بأنّها إنسانٌ بغيض لا يطاق ولا يمكن لأيّ إنسانٍ شريفٍ أن يعاشر مثل هذا الكائن ويجب عليه الابتعاد عنه يقول خفاف[46]:

أدعُ الـــدَّنَاءَةَ لا أُلابِـــسُ أَهلَهَـــا وَلَـــديَّ مِـــنْ كِـــيسِ الزّمَـــانِ نَصـــيبُ

44- التَّبريزي، الخَطيب، شرح ديوان عنترة، ص:131.

45- ديوان سحيم، ص:54.

46- ديوان خفاف، ص:41.

الخاتمة:

وعلى هذا كانت المعنويات المؤنسنة في هذا الفصل متقلبة، اكتسبت صفات الإنسان في أغراض شتّى وكان أغلبها في مجال الفخر ولا سيما عند عنترة الذي اتخذها في أغراض سامية وضحت مدى قوته و جسارته في مواجهة المحن وقد كانت عند سحيم في فداء المحبوبة، أما عند خفاف فقد كانت تحمل غاية رفيعة وهي الابتعاد عن أهل الدناية ومعاشرتهم وقد اتضح من كلّ ذلك أنّ الشعراء أرادوا بيان أحوالهم في ظل ذلك المجتمع الذي نبذهم، فقرروا أن يبرزوا أنفسهم رغم كلِّ الظروف التي كانت تجثم على صدورهم بسبب الكثير من العادات اللا إنسانية التي استعملها القوم في معاملة العبيد الأغربة الذين وُلدوا في هيئة ليس لهم ذنبٌ بها إنّما كان ذلك ذنب الأحرار الذين سمحوا لأنفسهم في معاشرة النساء الإماء رغم أنّهم يكرهون أن يلدنَ منهم، وفي ذلك نجد مفارقة شاسعة بين من يكره استولاد الإماء وفي الوقت نفسه تكون هناك معاشرةً معهن، لا يخفى على أحدة النتيجة من المعاشرة فقد كانت النتيجة عنترة وخفاف...الخ ممن وقع ضحية لشبق هؤلاء الأحرار.

نتائج البحث:

1- إنّ الأنسنة التي وظفها الشعراء السود كانت كفيلة بتحقيق الانسجام بين الشاعر الغراب وذاته بعد أن فقد وجوده المادي والمعنوي وذاب في بوتقة التقاليد والأعراف البالية.

2- تحوي الأنسنة على قدرٍ كبيرٍ من الصنعة الشعرية والقصدية المطلوبة في خلق التعاطف الإنساني مع الشاعر الغراب، فعنترة مثلاً تعاطف مع الحصان إلا أنه لم يتعاطف مع الموت أو الزمن وكذلك هم البشر يتعاطفون مع القريب إلى نفسهم .

3- لا تكون الأنسنة إلّا بعد رفض الواقع اللا إنساني، فعندما رفض خفاف الدناءة على أنّها رجلٌ رفض في داخله من يتصف بها .

4- شكلت الأنسنة فضاءً شعرياً جعلت الكلام يعبّر عن كلّ شيء اعتمل بذات الشاعر فعندما أنسن سحيم الخيال ذلك لرغبة جامحة في نفسه في لقاء المحبوبة وعندما عرّج عنترة إلى المصائب و أنسنتها ذلك لأنّها أرهقته وعكرت صفو حياته في ظلّ نبذه ونبذ غيره من الأغربة .

المصادر و المراجع:

المصادِر:

1. ابن الفارض، الديوان، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1990م.

2. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، دار صادر بيروت، ط3، 1993م.
3. أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري، تح: محمد عوض مرعب، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث بيروت، ط1، 2001م.
4. الأندلسي، ابن حزم، طوق الحمامة، دار المعارف مصر، ط2، 1977م.
5. التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، قدَّم له ووضع فهارسه وهوامشَهُ: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992،
6. ديوان خفاف بن ندبة، جمع وتحقيق: الدكتور نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف بغداد، 1967م، د ط.
7. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تح عبد العزيز الميمني، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية، 1950م، د ط
8. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، ط4، عين مليلة الجزائر، 1990م.
9. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تحقيق: مصطفى مجازي، تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة، الكويت، د.ط، الكويت 1969م.
10. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، كتاب العين، دار و مكتبة الهلال، د ط، د ت.

المراجِع:

1. إبـراهيم ، د. جـودت ، منهجيــة البحـث , مديريــة الكتـب والمطبوعـات 2007–2008م .
2. أركـون، محمـد، ترجمـة :هاشـم صـالح، معـارك مـن أجـل الأنسـنة فـي السياقات الإسلامية، دار الساقي ،بيروت لبنان، ط1، 2001م،
3. إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، أحمد حسن الزيات المعجم الوسيط، دار الدعوة ، اسطنبول، تركية، د ط، 1989م.
4. أحمـد، مرشـد، البنيـة والدلالـة فـي روايـات نصـر الله، المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2005م.
5. الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق، دار المكشوف بيروت، ط1، 1957م.
6. الجبوري محمد فليح حسن، ماهر صبار فهد: أنسنة الزمان في العصر الجـاهلي الشـعراء الفرسـان اختيـاراً، جامعـة المثنـى كليـة التربيـة للعلـوم الإنسانية، 2015م.
7. الشمري، ثائر سمير حسن، التشخيص في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري دراسة نقدية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018م.
8. فوغـالي، د. بـاديس الزمـان والمكـان فـي الشـعر الجـاهلي، عـالم الكتـب الجديد، الأردن، ط1، 2008م.
9. محمد: حسين نجيب: الروح بين العلم والعقيدة، الحياة بعد الموت، دار الهدى للطباعة والنشر، ط3، بيروت، لبنان، 2005م.
10. مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، عدد24، المجلس الوطني للثقافة، الكويت 1998م.

الرسائل الجامعية

1- لبنيني، زهيرة، بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان دراسة بنيوية، رسالة ماجستير، جامعة العقيد الحاج خضر، باتنة، 2007-2008م

الشابكَة:

1. المقدم، لمياء، موت الزمن المتكرر الخميس 20 يونيو 2019م، الشابكة.